الجزء الثانى

الاستغلال الاستعمارى
لتراث الأرض فى الكتاب المقدس

الفصل الثانى

الاستعمار وأمريكا اللاتينية

شرائع حصار وفتح المدن البعيدة

وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولاً. فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيداً لكم. وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها. فإذا أسقطها الرب إلهكم فى أيديكم، فاقْتُلوا جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما فى المدينة من أسلاب، فاغنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التى وهبها الرب إلهكم لكم. هكذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم التى ليست من مدن الأمم القاطنة هنا.

[التثنية ٢٠: ١٠ - ١٥]

يعبر الشعر التالى عن رأى شاعر من المايا [شعب فى أمريكا اللاتينية] بشأن اكتشاف الأوروبيين لأمريكا (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٨):

لكى يسمحوا لوردهم بالعيش

أتلفوا ورودنا وابتلعوها

هكذا يرى شاعر المايا «اكتشاف» أمريكا (بيوزو: ١٩٩٠ : ٨٨).

يذكر الكاهن الكاثوليكى «أيبان واجوا» ـ وهو هندى من قبيلة كونا من مواطنى بنما الأصليين ـ أثناء الاحتفال بالذكرى الخمسمائة لاكتشاف أمريكا، أن هناك اسمين لأمريكا هما: «أبيا يالا» وأمريكا، وتاريخين هما: تاريخ «كونا» الخاص بالسكان الأصليين الذين ما زالوا يناضلون من أجل البقاء على قيد الحياة، وتاريخ «أواجا» الذى كتبه الأجانب. لكن ماذا بقى للهنود الحمر حتى يحتفلوا بهذا الاكتشاف؟

بماذا نحتفل فى تاريخنا كسكان أصليين؟هل نحتفل بالتهميش والعنف والقتل الجماعى وإبادة قبائل بأكملها من أبيا يالا؟ نحن ـ السكان الأصليين ـ نعلم أننا يمكن أن نحتفل بمقاومتنا وإرادتنا الشديدة للبقاء على قيد الحياة على الرغم من الظلام والليل الذى يحيط بنا (واجوا ١٩٩٠ : ٤٩).

و فى بادئ الأمر، سنستدعى الأحداث من وجهة نظر الأوروبيين.

١٢ أكتوبر ١٤٩٢: اكتشاف أمريكا[١] وسواحلها

فور هزيمة المسلمين وسقوط غرناطة عام ١٤٩٢، قام كل من «فرديناند» ملك

(١) فى عام ١٥٣٥، تحدث «فرناندیز دى أوڤيدو» مؤرخ الإمبراطور شارل الرسمى «للهند» عن اكتشاف «كولومبس» لأمريكا، وقال إنه ليس اكتشافًا لأراض جديدة ولكنه استرجاع لأراضى إسپانيا «هسپيريد» وهى أراضى مملكة الملك الأسطورى «هسپيروس» القديمة (Historia general y natural de las Indias, bkII. 2; ch. 3) بالتالى، لم يتم غزوها واحتلالها، وإنما استرجاعها بعد سقوطها فى غياهب النسيان (Kadir 1992: 132).

أراجون و«إيزابيلا» ملكة قشتالة بدعم «كريستوفر كولومبس» وتمويله. أبحر «كولومبس» على متن ثلاث بواخر عليها تسعون رجلاً؛ ووصل يوم ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ إلى ما نسميه اليوم جزر «باهاما»، ثم نزل فيما نسميه اليوم السلڤادور. وبعد أن استمر فى الاستكشاف، توصل إلى هيسپانيولا (الاسم القديم لجمهورية الدومينيكان وهايتى) وكوبا حيث وجد الذهب، ووجد شعوب الأرواك طيِّعة الانقياد. واعتقد أنه وصل إلى آسيا، وأطلق على الأرواك اسم الهنود. وعندما تحطمت سفينة سانتاماريا بسبب اصطدامها بالصخور الساحلية، بقى ٣٩ بحارًا فى الجزيرة، بينما رجعت السفينتان الأخريان نينا وپينا إلى إسپانيا فى بداية عام ١٤٩٣.

وأثار اكتشاف «كولومبس» لأمريكا ضجة كبيرة فى الأوساط الأوروپية، كما ضمن له اكتشاف الذهب فى هيسپانيولا استقبالاً حارّا عندما التقى بـ«إيزابيلا» فى برشلونة عام ١٤٩٣. ووفقًا لعادات القرون الوسطى ومثلما فعل البرتغاليون فى السابق، طلب «كولومبس» من «البابا ألكسندر السادس» أن يمنح لهم أوسمة لتملك الأراضى التى اكتشفوها مؤخرًا. ووافق البابا على طلبهم فى مرسوم أصدره يوم ٣ مايو ١٤٩٣. وبعد شهور من هذا الحدث، رسم البابا ـ رسمًا تخيليّا يقسم القارة من الشمال إلى الجنوب على بعد ٥٦٣ كيلومترًا غرب جزر «أزور» و«الرأس الأخضر»؛ وذلك لتجنب النزاعات بين إسپانيا والبرتغال. فأصبحت الأراضى الواقعة شرق الخط تخص البرتغال؛ أما الأراضى الواقعة غربه فكانت لقشتالة. وعند إبرام معاهدة «توردیسیاس» عام ١٤٩٤، اتفق البلدان على أن يكون التقسيم أكثر عدلاً حيث تم نقل الحد الفاصل إلى الغرب بمسافة ٢٠٨٤ كيلومترًا. واستحوذت البرتغال على البرازيل مع وصول «پيدرو ألڤارس كابرال» إلى السواحل الشرقية. واستكمل «كولومبس» حملاته الاستكشافية فى المنطقة (١٤٩٢ - ١٤٩٣؛ ١٤٩٣- ١٤٩٦؛ ١٤٩٨ - ١٥٠٠؛ ١٥٠٢ - ١٥٠٤) حيث تبع اكتشافه للقارة حملات استكشافية أخرى. كان الاستيطان فى هيسپانيولا والجزر الأخرى المحيطة بها من ١٤٩٢ إلى ١٥١٩، بداية تدفق المحتلين على أرض القارة.

ثمن الاكتشاف

وصل أول سكان المنطقة إلى ما سُمى بعد ذلك أمريكا الشمالية عن طريق مضيق يفصل ألاسكا وسيبريا، والذى يطلق عليه اليوم اسم مضيق «بيرنج» وذلك فى الفترة من عام ٤٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ قبل الميلاد. وتشير الاكتشافات الأثرية إلى وجود مجتمعات إنسانية فى أراضى المكسيك العليا وأمريكا الوسطى وفى سهول «الأنديز» العليا منذ عام ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد؛ بينما تم استيطان مناطق مثل حوض الكاريبى وهضاب أمريكا الجنوبية قبل قدوم «كولومبس» بأقل من ٢٠٠٠ عام. ونجد فى هذه المناطق أدلة على زراعة ناشئة، وبزوغ ثقافات عديدة ومحنكة. وكان عدد السكان الأصليين عام ١٤٩٢ يتراوح ما بين ٣٥ إلى ٤٥ مليون نسمة، ينتمون إلى تشكيلات من قبائل مختلفة، منها قبائل الأزتك والإنكا الأراوكازى والأرواك والكاريب الشيبشا، وغيرها (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ٣). وقد طورت هذه الشعوب ثقافات متقدمة (ثقافة الأولمك والمايا والتولتك والأزتك، والإنكا الخ). وبعد أن اكتشف الأوروپيون المنطقة، بدأت عمليات قهر هذه الشعوب بشكل سريع للغاية.

رجع «كولومبس» إلى المنطقة فى نهاية ١٤٩٣ بصحبة ١٥٠٠ رجل، بحارة وإداريين ورجال دين. إلا أنه فى هذه المرة كان ينوى إنشاء مستوطنات. وسعى المستوطنون إلى استعباد السكان الأصليين، وفرضوا عليهم الإتاوات. وأنشأ الإسپان نظام «الإنكوميندا» والذى من خلاله يسمح المستوطنون لأنفسهم بامتلاك أراض واسعة بما عليها من سكانها الأصليين. وأصبحت هذه السياسة الوسيلة الرئيسية فى استعمار أرض القارة. وفى المقابل، كان يتعين على المستعمرين أن يحموا الهنود وأن يدخلوهم فى المسيحية الكاثوليكية وأن يعلموهم أساسيات الإيمان، بالإضافة إلى القيم العليا للحضارة الأوروپية (انظر هاريسون ١٩٩٣ : ١٠٦). وتم إخضاع هنود جزيرة هيسپانيولا لهذا القانون القاسى «الإنكوميندا» ؛ كما تم إرسالهم قسريّا إلى مناجم الذهب حيث كانوا مجبرين على العمل؛ بالإضافة إلى توفير الطعام للإسپان. أما بالنسبة للنساء، فكن يُستخدمن جنسيّا. وتم فرض العمل الجبرى بما فى ذلك الاسترقاق. وعندما نضب معين القوة العاملة الهندية، جلب الأوروپيون الأفارقة. هذا وقد تراجع عدد الأرواك الذين شهدوا انهياراً فى صحتهم بسبب ظروف العمل

الصعبة وسوء التغذية وانتشار الأمراض (خاصة مرض الجدرى الذى ظهر فى الجزيرة عام ١٥١٩) حتى أنه فى منتصف القرن السادس عشر مات مليون منهم (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ٢٨).

وبدأ احتياطى الذهب فى هيسپانيولا ينفد عام ١٥٠٩، وأصبح البحث عن مصادر أخرى ضروريّا. هذا بالإضافة إلى تراجع أعداد السكان الأصليين، الأمر الذى أدى إلى نقص الأيدى العاملة المتاحة للقيام بأعمال السخرة؛ مما دفع المستعمرين الإسپان (الذين لم يتجاوزوا العشرة آلاف) إلى البحث عن عبيد فى أماكن أخرى. وبحلول عام ١٥١٩، كان الإسپان قد دمروا جزر الكاريبى وجزءًا كبيرًا من أرض القارة، ووضعوا أسس الاستغلال الاستعمارى، وتطلع الإسپان لاستعمار القارة (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ٣٢- ٣٣). ومنذ أواسط القرن السادس عشر، غزا المغامرون الإسپان (الفاتحون) الذين كانوا متفوقين بسبب استخدام الجياد، والأسلحة النارية، حضارات الهنود الحمر الكبرى؛ مما أعطى سلطة كبيرة لإسپانيا على أمريكا اللاتينية. وانتشر المستوطنون الإسپان والبرتغال حتى قبل انتهاء حملات الغزو. وقد كان هدفهم تحقيق الثروة والسلطة وتحسين وضعهم الاجتماعى. واعتبر ـ وليس لأول مرة ـ المسيحيون المتصرون أن الله معهم، الأمر الذى كان يعطيهم إيمانًا أكبر بقضيتهم عندما بدءوا فى غزو الأمريكات (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ١٦ - ١٧).

وكان المغامرون الإسپان يعيشون حياة رغيدة بالاعتماد على عمل الآخرين. وكانت استراتيچيتهم الأولى تعتمد على النهب والسلب الصريحين لثروات إمبراطوريات الأزتك والإنكا الشيبشا، وغيرها، وذلك قبل أن ينتهجوا سياستهم ذات المدى الطويل لاستخراج الذهب والفضة، وقبل أن يستقطعوا مستعمراتهم من أخصب أراضى الهنود الحمر. ولتحقيق ذلك كان يجب عليهم الحصول بانتظام ودائمًا على أيد عاملة مطيعة. وفى هذا الصدد، كانت أفضل خطة تتمثل فى جمع الهنود فى مخيمات، أو فى قرى مثلما كان الأمر فى البرازيل. وزعموا أن هذه التجمعات الجبرية كانت تهدف إلى تسهيل عملية التنصير. ولكن فى الواقع كانت تلك الطريقة هى الوحيدة المضمونة

والأكيدة بالنسبة للبيض لاحتلال الأراضى[١]. ويرى هاريسون أن عدم المساواة التى مازالت تشهدها هذه البلاد، ما هى إلا آثار من الظلم الرئيسى الذى مارسه الأوروبيون عند احتلالهم إياها (١٩٩٣ : ١٠٨).

وقد لقى ملايين الهنود الحمر مصرَعهم خلال المعارك أو بسبب المجاعات أو أعمال السخرة، حتى أن المستعمرين استرقوا الأفارقة وجلبوهم لاستكمال النقص فى الأيدى العاملة. ودارت بعض المناقشات بشأن مدى أخلاقية استرقاق الهنود الحمر؛ إلا أنه لم يكن هناك أى نقاش قضائى أو لاهوتى فيما يخص استرقاق الأفارقة السود؛ ففى خلال أربعة قرون، تم استرقاق ما يزيد على ١١ مليون أفريقى واستجلابهم[٢](*). جلبت تجارة العبيد اليد العاملة التى طورت الاقتصاد الزراعى لما أصبح فيما بعد البرازيل وڤينزويلا والكاريبى لصالح المستعمرين. وفى أجزاء أخرى من أمريكا اللاتينية، أكملت النقص فى الأيدى العاملة الهندية. وقد تمتعت مؤسسة الرق بالتأييد الواضح من الكنيسة والدولة والنبلاء والرأى العام جميعًا.

بمرور السنين، أصبح الاقتصاد الإسپانى أكثر اعتمادًا على أمريكا اللاتينية. ودامت السلطة الاستعمارية حوالى ٣٠٠ عام، بعدها انتشر الغضب وعدم الرضا، وتحت تأثير القيم العليا للثورة الفرنسية وحرب الثورة الأمريكية (١٧٧٥-١٧٨٣)، قامت حروب الاستقلال. واستقلت المكسيك عام ١٨٢١، ثم أمريكا الوسطى عام ١٨٢٢، ولكن بدأت أمريكا الوسطى المتحدة فى التفكك عن بعضها البعض فى عام ١٨٣٨، بدءًا باستقلال «جواتيمالا» و «السلڤادور» و«هندوراس» و«نيكاراجوا» و«كوستاريكا» عام١٨٤١ . وحققت المستعمرات الإسپانية فى أمريكا الجنوبية استقلالها عن إسپانيا منذ ١٨٢٤. وفى ١٨٢٢ أعلنت البرازيل استقلالها عن البرتغال[٣].

---

(١) مثلما سنرى ذلك فيما بعد، تم تطبيق طرق مماثلة فى جنوب أفريقيا (البانتوستان)، وفى فلسطين، حيث لا تمثل المناطق التى تحت حكم السلطة الوطنية الفلسطينية إلا حوالى ٤٪ من أراضى الضفة الغربية.

(٢) تذهب بعض التقديرات لأرقام أعلى من الأفارقة المستعبدين والمجلوبين من أفريقيا، تبلغ ١٥ مليونًا عند (هربون ١٩٩٠ : ٩١ـ٩٣)، و٢٠ مليونًا عند (ريتشارد ١٩٩٠ : ٥٩ـ٦٠).

(*) وأفادت دراسات أخرى أنه مقابل كل أفريقى وصل لأمريكا عبدًا، مات تسعة آخرون، فى أفريقيا، أو فى الرحلة لأمريكا ـ المترجمة.

(٣) أرادت هذه المستعمرات، الاستقلال والتحرر من العبودية لدولة أخرى، مثلها مثل الولايات المتحدة، دون أن تهتم البتة بإنهاء العبودية داخل حدودها.

الدعم اللاهوتى
اللاهوت المسيحى فى القرون الوسطى

يسود بين المسيحيين الأوروبيين فى العصور الحديثة سلوك الهيمنة، ليس فقط على الطبيعة، بل وعلى الأجناس والثقافات الأخرى، وهنا يجد تاريخ الاستعمار اللاحق [فى إسپانيا وأفريقيا] جذوره، حيث لجأ المستعمر الأوروبى فى أمريكا اللاتينية إلى استبعاد ثقافة الآخر. ومنذ غزو أمريكا، ارتبط الدين بالسياسة ارتباطًا وثيقًا فى أمريكا اللاتينية؛ حيث أعطى كل منهما الدعامة الأيديولوچية والمادية التقليدية والشرعية للآخر (ليڤين ١٩٨١ : ٣). ومنذ قدومها إلى العالم الجديد، كانت الكنيسة الكاثوليكية هى الشريك الحقيقى للمشروع الاستعمارى. وكان من ضمن مهامها ووظائفها مراقبة التقارير وكتابتها بشأن سلوك السلطة المدنية (لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢٠٣ - ٢٠٧). ولعبت الجماعات الكاثوليكية المنديكانتية [جماعات الرهبان المتقشفة التى تعيش على التسول] وبالدرجة الأولى الفرانسيسكان، دورًا حيويًا فى المشروع الاستعمارى، مع تأسيسهم الأديرة كمراكز لنشر المسيحية.

وتم الاعتماد على حجج لاهوتية وكتابية عديدة لوضع الأساس الأيديولوچى للاستعمار. وكان علماء اللاهوت المسيحيون فى العصور الوسطى يتبنون رأى رجال الدين الإسرائيليين بشأن الطابع المقدس للدولة ومؤسساتها بما فى ذلك الأرض. وكانوا جميعًا يؤكدون أن الأرض هى هبة الله: بالنسبة للإسرائيليين فى عصرهم، وبالنسبة للإسپان والبرتغاليين فيما بعد فى العالم الجديد (پاردون ١٩٧٥ : ٤٢). وتعنى ملكية الله للأرض سيادته السياسية على جميع أراضى العالم (لامادريد ١٩٨١ : ٣٢٩).

كان الدين فى العصور الوسطى يدخل فى جميع أمور الحياة ومظاهرها، مثلما كان الوضع فى عصر العهد القديم. وكان معظم رجال اللاهوت والقضاة يعتبرون البابا - نائب المسيح - سيد الأرض. ويجب أخذ أوامر البابا بعين الاعتبار وفقًا للتصور الخاص بالحكم الإلهى المتعارف عليه فى العصور الوسطى؛ إذ كان البابا سيد الأرض؛ لأن المسيح أعطاه كل السلطات فى السماء وعلى الأرض. وكان المرسوم الذى أصدره البابا عام ١٤٥٥ يقضى بتقسيم العالم الجديد بإعطاء الأراضى التى تم اكتشافها للبرتغال. أما الأمر الذى صدر عام ١٤٧٩، فكان يقضى بالتنازل للبرتغال عن كل أراضى أفريقيا

التى اكتشفتها . أضف إلى ذلك مرسوم البابا «ألكسندر السادس» عام ١٤٩٣ الذى قضى بمنح بعض المستعمرات لإسپانيا . وكان يُسمح للملوك بأن يشنوا حروبًا مقدسة تهدف إلى غرس الإيمان الحقيقى فى أرض الكفار (لامادريد ١٩٨١ : ٣٢٩) . وعبر «كولومبس» عن المظاهر الدينية لاستكشافاته فى الإهداء الوارد فى تقريره بشأن رحلته الأولى(الجمعة ٣ أغسطس ١٩٤٢) :

جلالة الملك فرديناند ملك أراجون ، وجلالة الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة ، إنكما ككاثوليك وأمراء يحبون الإيمان المسيحى ويأملون أن يروه ينتشر ، ولكن أيضًا كأعداء لطائفة محمد (Mahomet) وكل عبدة الأوثان والهراطقة ، رأيتم أنه من الأفضل أن ترسلونى أنا كريستوفر كولومبس إلى مناطق الهند وذلك لمعرفة بأى طريقة يمكن أن يتم تنصيرهم حتى يدخلوا ديننا المقدس (مقتطف من النص الأصلى الوارد فى كتاب «لاس كاساس» ١٩٨٩- ١٩٩٤ : ١٤ ، ٤١) .

وقد بدأ «كولومبس» يومياته بعبارة «باسم المسيح» . وبهذا الشكل أدى الحافز الدينى لتنصير الهنود الحمر إلى تبرير الغزو الاستعمارى[1] . وفى حديثه عن «كولومبس» ، كتب «بارتولومى دى لاس كاساس» فى حوالى ١٥٢٧م ، أن حافزه كان استيطان المستعمرين الإسپان ؛ لإنشاء كنيسة مسيحية جديدة وقوية وجمهورية سعيدة واسعة ونموذجية (من النص الأصلى فى لاس كاساس ١٩٨٩- ٩٤ : ٣ ، ٣٥٩) ورأى «كولومبس» فى اكتشافه للقارة تحقيقًا لنبوءات الكتاب المقدس ، خاصة فى الآية (٦٥ : ١٧) من سفر إشعيا : «لأننى ها أنا أخلق سماوات جديدة وأرضًا جديدة» والتى يكررها كثيرًا ؛ وأيضًا : «لا يصدر عنها كلام ، لكن صوتها يسمع واضحًا . انطلق صوتهم إلى الأرض كلها وكلامهم إلى أقاصى العالم» (المزمور ١٩ : ٣ - ٤) التى نجدها تتكرر خمس مرات فى كتاباته ؛ بل وأيضًا : «ثم رأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة» ـ (سفر الرؤيا ٢١ : ١) .

أكثر من هذا ، تظهر ـ بصفة عامة ـ لغة «كولومبس» الرمزية ، وإحساسه بالتاريخ وبعلم الكون ، تأثره الواضح بالكتاب المقدس ، وبالفترة بين عهديه القديم والجديد ،

(١) هناك انحراف هائل عن نموذج الفتح الإسرائيلى فى الكتاب المقدس ، حيث إنهم لم يحاولوا أبدًا أن يجعلوا الكنعانيين يهودًا .

ونبوءاته، كما يعكس ذلك إغماؤه النعاسى من فرط النشوة فى چامايكا، فى ٧ يوليه ١٥٠٣ (كادير ١٩٩٢ : ١٥٦- ٥٩).

ومثلما هو واضح فى كتابه (كتاب النبوءات ـ Libro de las profecias)، يرى «كولومبس» أن مهمته تأتى فى ذروة النهاية، وبداية ألفية سيتم فيها استعادة جبل صهيون (و كان يريد أن يجند لهذه العملية ١٠٠٠٠ فارس و١٠٠٠٠٠ جندى ـ انظر كادير ١٩٩٢ : ٢٠٢-٢٠٣) حيث سيتم توحيد كل الأرض، وستصبح البشرية جمعاء مسيحية على ضوء الإيمان الحقيقى. وفى النهاية يتم إنشاء كنيسة عالمية، وسيكون هناك راعٍ واحد لقطيع واحد. وبالتالى سينتصر إمبراطور العالم «فرديناند» ملك أراجون على عدو المسيح فى جبل صهيون؛ وسيقوم بابا ملائكى لإحدى الكنائس المجددة بقيادة المؤمنين المخلصين إلى ألفية جديدة سعيدة، تسبق يوم الحساب الأخير. ومن يا ترى أفضل من ـ كريستوفر كولومبس ـ «حامل اسم المسيح» ليبدأ العملية؟ (انظر كادير ١٩٩٢ : ٣٠-٣٢).

وهكذا ساعدت ممارسات التنصير الكنسية على دعم جشع سلطة الدولة وعهدت لها بالسيطرة على ثقافة السكان الأصليين. ورأى المحتل نفسه ممثلاً الله، والكفار البربر ممثلين للشيطان. وأدى التنصير إلى إخضاع الشعوب المحتلة أيديولوچيّا، كما أدى البارود والجياد إلى إخضاعهم عسكريّا. وكان الهدف الحقيقى للغزو هو السيطرة الاقتصادية على المنطقة. وجاء التبرير الرئيسى للحرب وفقًا لمرسوم «جراشيانو» من أعمال العهد القديم (يشوع، القضاة، شاول وداود وغيرها..) الذى يعبر عن الأمر الإلهى بشن حرب مقدسة تضمن لهم امتلاك أرض الوعد. وإذا كان هناك شكوك وترددات فيما يخص الاعتداء والغزو، فإن تأكيدات القديس أوغسطين تكفلت بطمأنتهم، حيث يقول إن الحرب التى تقوم بأمر من الله لا يمكن أن تكون إلا عادلة، لأن الله ليس فيه شر.

أما كتاب «چوان مار»: «أمر محكمة» الذى تم نشره فى پاريس عام ١٥١٠، فيتناول لاهوتيّا لأول مرة احتلال أراضى الكفار. وعلى الرغم من أنه يتناول الموضوع بشكل عام، إلا أنه يضرب غزو الإسپان لأراضى الهند الأمريكية كمثل، وهو يعتبر احتلال أراضٍ

مأهولة بالسكان الأصليين وإخضاعهم ما هو إلا تأدية رسالة. ويمكن للمسيحيين أن يحملوا السلاح إذا كان الأمر يتعلق بنشر المسيحية وتعليم الإنجيل. و وفقًا لنظرية أرسطو، فإن البربر هم عبيد التطبيع؛ مما يُبرر إخضاع الهنود الحمر لتعاليم المسيحية. وكانت هذه الأفكار راسخة بشكل واضح فى الأذهان لدرجة أنه منذ ١٥١٣ كان يلزم على الإسپان أن يقرءوا للهنود الحمر طلباتهم وذلك قبل القتال ـ وكانوا لا يترجمون لهم ذلك فى معظم الأحيان(انظر تودوروف ١٩٨٤ : ١٤٨) ـ ليحثوهم على :

. . . الاعتراف بالكنيسة كقائدة و حاكمة للعالم، والاعتراف بالسيد الأعلى للكنيسة «البابا»، بالإضافة إلى الاعتراف بملوكنا الملك والملكة في رعايته، كسادة وملوك على الجزر والقارة وفقًا لما سبق. . . وإذا قبلتم كل هذا ستكونون فى أحسن حال. . . وإذا رفضتم أؤكد لكم أننى سأهاجمكم بقوة بمساعدة الرب وسأعلن عليكم الحرب فى كل الأماكن وبكل الوسائل المتاحة. . . . سأقبض عليكم أنتم ونسائكم وأطفالكم وسأحولكم لعبيد. . . وأؤكد مرة أخرى أن موتكم أو المصائب التى ستلحق بكم ستكون بسبب مسئوليتكم وليس مسئولية جلالة الملك، أو مسئوليتى أو مسئولية النبلاء الذين يصاحبوننى (كادير ١٩٩٢ : ٨٦-٨٧).

أما لاهوت «چوان چينى سيپولڤيدا» فهو نموذج للاهوت الذى يبرر الحرب ضد الهنود بأنها شرط مُسبق لتنصيرهم. وأنهى «سيپولڤيدا» الذى ولد فى إسپانيا ١٤٩٠ تحرير كتابه عام ١٥٤٥، إلا أنه منع من نشره. إن تفكيره اللاهوتى مهم فى العديد من القضايا التى تعرض إليها، وبالأخص فيما يتعلق بالحجج التى استعملها لإخضاع أوامر الإنجيل للواقع السياسى الأيديولوچى للفتح. وفى بادئ الأمر يذكر ـ بصفة عامة ـ الظروف التى تبرر حربًا عادلة قبل أن يتحدث عن إطار فتح أمريكا. وأشار إلى ثلاثة أسباب تبرر الحرب العادلة: الدفاع عن النفس الذى يسمح باستعمال القوة للرد على القوة، وثانيًا حماية الحقوق باسترجاع الممتلكات التى تم مصادرتها بشكل غير عادل، وأخيرًا معاقبة مرتكبى أعمال الشر، ويضيف سببًا رابعًا ألا وهو الحق فى الإخضاع بالقوة، وذلك بالنسبة للأشخاص الذين ـ بسبب ظروفهم الخاصة ـ يجب أن يخضعوا لسلطة آخرين. ووفقًا له، فإن كبار الفلاسفة يبررون مثل هذه الحرب.

وبتطبيقه هذه المبادئ فى إطار الحرب العادلة التى اندلعت فى أمريكا، فإن السبب الرابع لتبرير الحرب يصبح فى المقدمة. و بما أنه من الطبيعى والبديهى أن يحكم الرجل الحكيم والأمين والإنسانى، أولئك الذين لا يمتلكون هذه الصفات، فيصبح للإسپان كل الحق فى ممارسة السلطة على بربر العالم الجديد، لأنهم أقل مستوى منهم، كالأطفال مقارنة بالكبار، والنساء مقارنة بالرجال، وذلك وفقًا للتميز الذى حدده أرسطو بين الذين ولدوا لكى يحكموا، والذين ولدوا ليكونوا عبيدًا(*). (السياسة ١٢٥٤ ب، ترجمة سيپولڤيدا من اللاتينية). ويرى «سيپولڤيدا» أن الأجناس البربرية متوحشة وغير إنسانية بينما ينتمى الإسپان إلى جنس يتسم بالرحمة والإنسانية والتسامح. ووفقًا له، فإن الهنود الحمر هم بربر وأيضًا أقل درجة من الإنسان؛ ولذلك يجب إجبارهم على القبول بالسيطرة، وهى سيطرة ستجلب لهم امتيازات كبيرة وكثيرة. فالإسپان المتحضرون سيجلبون التطور للبربر الذين بالكاد يمكن أن نطلق عليهم اسم بشر، وذلك بنقلهم من حالة الخمول والبطء و التدهور الأخلاقى إلى حالة القيم الرفيعة والشرف. وبعد أن يتركوا عبادة الأوثان حيث كانوا عبيدًا للشيطان، سيصبحون مسيحيين يعبدون الله الحقيقى. وقد أصر «أوڤيدو» المؤرخ الرسمى للإمبراطور تشارلز على القول: «من يجرؤ أن ينفى أن استعمال المدافع ضد عبدة الأوثان هو بمثابة إحراق البخور لإلهنا؟» (تودوروڤ ١٩٨٤: ١٥١).

تنجم الحجج التى يستعملها «سيپولڤيدا» لتبرير الاحتلال عن مواقف عنصرية تدعو إلى تمييز جنس على جنس. وبالفعل، هى أفكار ناتجة عما يسميه (النظام الطبيعى) أكثر من كونها قيمًا عليا مقترحة من لاهوت أخلاقى مستنير.

كان يتعين على الكنيسة أن تقدم الإنجيل كمحرك لتحرير الشعوب الأصلية، ولكن بدلاً من ذلك، برر بعض رجال اللاهوت السيطرة والمذابح الاستعمارية باسم تحويل هذه الشعوب إلى المبادئ العليا للإنجيل. وأصبح التنصير الدعامة الأساسية للاستعمار. ورغم الرفض الذى قد نبديه تجاه هذه المواقف وهذه الحجج، فإننا نستنتج أن بوسع «سيپولڤيدا» أن يجد تبريرات أخرى للعرقية فى تقاليد الكتاب المقدس ليعطى

(*) يُسمى ذلك نظرية «پيتر بان»، أى الشعوب التى يتوقف نمو البشر فيها، فلا يبلغون مبلغ الرجال العقلاء الحكماء، أى الأوروپيين، فيقع على الأوروپيين عبء حكم تلك الشعوب الپيترپانية، لمصلحتها - المترجمة.

شرعية لتلك الأعمال. فهو يرجع إلى نصوص معروفة فى سفرى التثنية واللاويين، ويشيد بطرد الإسرائيليين للكنعانيين بشكل وحشى باسم الله. ويؤكد استحالة التبشير بالإنجيل إذا لم يخضع الشعب سياسيّا للمسيحيين؛ وأنه فى كل الأحوال لم يكن الهنود الحمر إلا وثنيين برابرةً صالحين فقط لأن يكونوا عبيدًا. وما أسفرت عنه المسيحية فى ذلك الوقت، كان فى الحقيقة شكلاً استعماريّا للمسيحية الغربية، منتشيًا بانتصارها الحديث على(المور ـ Moors) [المسلمين فى الأندلس، وتشير الكلمة إلى المغاربة]. وأصبحت المسيحية تتمتع بأعلى أنواع الاعتراف والتقدير من العلمانية، وفى المقابل أعطت السلطة الدينية الشرعية للسلطة الدنيوية.

ولكن فى الواقع، لم يكن دور الدين الوحيد يتمثل فى الاستغلال التام و العنيف للهنود الحمر. فقد تم أيضًا تطبيق المناهج المعروفة لتعليم الإيمان المسيحى بدعم من أعمال التربية والخير، كما يصف ذلك «بيدرو دى جانت» وهو أخ فرنسيسكانى، وذلك فى رسالته للإمبراطور ١٥٣٢ (انظر لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢١٣ - ١٤). فى رسالة لأسرته التى مكثت فى إسپانيا عام ١٥٧٤، يجمع الأخ «خوان دى مورا» ـ وهو قس من أتباع «أوغسطين» وأستاذ الكتابات المقدسة ـ بين التجارة والدين، إذ يقترح على أولاد إخوته الذين يريدون الالتحاق به أن يستثمروا فى طباعة الكتاب المقدس فى «سالامانك». حيث أكد أن مثل هذا الاستثمار سيكون له آثاره الإيجابية بشكل مضاعف فى العالم الجديد (لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢١٣ - ١٤).

وبقدوم رجال الدين إلى العالم الجديد تضاعف التنصير، حيث توسل «كورتيس» عدة مرات إلى «تشارلز» الأول بأن يرسل له رجال دين، وفى مايو ١٥٢٤، وصل اثنا عشر راهبًا فرنسيسكانيّا ضمن الحملة التى تدعى «الغزو الروحى». وفورًا التحق بهم الدومينيكان الذين كانوا بالفعل نشطين فى مستعمرات الكاريبى، وكذلك أتباع القديس «أوغسطين». وكان إله المسيحيين ـ الذين يهدفون إلى تنصير الشعوب ـ إلهًا لا يقبل بأى منافس، وبالتالى شنوا عمليات التدمير والقضاء على الديانات المحلية دوريّا وبانتظام وبفعالية واقتدار. وقُدر عدد رجال الدين فى المكسيك بحلول عام ١٥٥٩ بحوالى ٨٠٠ أخ مسيحى (Friars). وكانت خطتهم تتمثل فى تنصير الزعماء المحليين المعروفين؛ حيث كانوا يأملون فى أن يكون هؤلاء قدوة للشعب ليعم الإيمان

المسيحى. واستعمل رجال الدين اللغات المحلية للتواصل مع الشعوب الأصلية مثل لغة الأزتك و نهواتل فى إسپانيا الجديدة، والكيكشى فى أمريكا الوسطى، و الكوتشوا و أيمارا فى پيرو. وسعوا إلى فصل الهنود الحمر عن الأوروپيين حتى لا يفسدوهم. وأنشأ الإخوان المسيحيون قرى هندية، الأمر الذى سمح لهم بمراقبة النشاطات السياسية والاقتصادية والدينية للمتنصرين الجدد. وقد استقبل العديد من الهنود الحمر المسيحية بشغف وفرحة. وبدت الكنيسة فوراً كمؤسسة قوية وصاعدة، وكانت تتدخل فى النظام الاستعمارى وأصبحت تدعم الثقافة والحضارة الأوروپية خلال الفترة الاستعمارية بأكملها.

أصوات معارضة

وكان هناك بالطبع داخل الكنيسة آراء معارضة (انظر دوسال ١٩٧٩). ومن هذه الأصوات الأب «أونتون دى مونتيسينوس» فى هيسپانيولا الذى قال فى خطاب مهم ألقاه خلال استعداد الكنيسة لعيد يوم القيامة فى عام ١٥١١:

يؤكد هذا الصوت أنكم جميعًا فى حالة خطيئة أخلاقية، وستعيشون بها وتموتون فيها بسبب الاستبداد والوحشية التى تفرضونها على شعب برىء. قولوا لى بأى حق وباسم أية عدالة تسترقُّون الهنود الحمر؟ وبهذا الشكل الوحشى والقاسى؟ وباسم أية سلطة قمتم بشن حروب شنيعة كهذه ضد شعوب كانت تعيش على أراضيها فى سلام، وأبدْتُم عددًا كبيراً منها فى مذابح لا مثيل لها؟ وكيف يمكن لكم أن تتركوهم فى هذه الحالة من القمع والنسيان بدون غذاء وبدون عناية، وهم يعملون أعمال سخرة يمرضون بسببها و يموتون فى أسوأ الأحوال؟ وكيف تقتلونهم لتستولوا على الذهب؟ (بارتولومى دى لاس كاساس، تاريخ الهنود ـ الجزء الثالث الفصل الرابع).

ويدين «مونتيسينوس» بشدة الحاضرين الذين لا يكترثون برفاهية الهنود الروحية حيث يتساءل: أليس الهنود الحمر بشراً؟ أليس لديهم روح؟ وقال «لاس كاساس» فى كتابه: فعل المستعمرون كل ما يستطيعون مع «مونتيسينوس» ليسحب ما قاله، وكانوا يأملون فى أن يقوم بذلك فى الأحد التالى. ولكنه واصل فى المرة التالية حديثه و ذكر

أقوال أليهو فى (أيوب٣٦ : ٢-٤) حيث أكد أنه يتم معاملة الهنود بشكل غير عادل وباستبداد. وأكد أن الله لا يبقى الأشرار على قيد الحياة، وإنما يعطى المظلومين حقوقهم، ويُعَرِّف الملوك بأخطائهم عندما يعتدون (أيوب ٣٦ : ١٠-١٢). ويقدم «بارتولومى دى لاس كاساس» تفكيرًا لاهوتيًا عميقًا فيما يتعلق باستغلال قبائل الأميرندى (تم نشره فى ١٩٨٩- ١٩٩٤). يثبت التغيير الذى أصاب تقييمه للأمور كيف أن ثقل التجربة الإنسانية قد يغير قيم الفرد. تغيرت رؤيته الأوروبية الأولى للاحتلال تغيرًا جذريًا. لقد شارك القس «لاس كاساس» وأعمامه الثلاثة فى الرحلة الثانية التى قام بها «كولومبس». وقد وصل إلى هيسپانيولا عام ١٥٠٢ وتم تعيينه كقس عام ١٥١٢، وكان أول قس فى العالم الجديد. وشارك عام ١٥١٣ فى غزو كوبا كمدرس لتعليم المسيحية مع «پانفيلو نفاراز». ومنذ ربيع ١٥١٤، اقتنع بعدم عدالة الفتح الإسپانى لهذه القارة (رغم أنه كان يملك عبيدًا)، وتغير تمامًا، ويرجع ذلك بنسبة كبيرة لقراءته لكتاب سيراش ٣٤: ٢١ - ٢٧ -79 (Historia de las Indias, bkIII, 80).

وقد رفض نظام الإنكومييندا، واهتم بالدفاع عن حقوق الهنود. وفى ديسمبر ١٥١٥ ندد أمام المحكمة الإسپانية بسوء معاملة الهنود (Historia de las Indias, bkIII, 84 - 85). وفى ديسمبر ١٥٢٢، دخل عند الدومينيكان فى هيسپانيولا؛ وفى ١٥٢٧ أقام الدير الخاص به فى «پيورتو دى پلاتا» وبدأ فى تأليف كتابه (Historia de las Indias) فى عام ١٥٤٤، ثم تم تعيينه أسقفًا فى كنيسة شياپاس فى المكسيك، إلا أنه رجع إلى إسپانيا عام ١٥٤٧ واستقر هناك نهائيًا. وما بين شهرى يوليه و سبتمبر عام١٥٥٠، دار النقاش بينه وبين «سيپولڤيدا» أمام لجنة ملكية لتبرير الغزو الإسپانى. وقد نشر «سيپولڤيدا» كتابًا عام ١٥٤٥ يبرر فيه الحرب فى أمريكا اللاتينية. ومات «لاس كاساس» فى دير دومينيكانى فى مدريد فى يوليه ١٥٦٦.

ووفقًا لـ «لاس كاساس» فإن الحافز الأساسى للغزاة كان :

> **شغفهم الكبير وطموحهم الفريد من نوعه فى العالم. وكذلك لأن هذه الأراضى غنية للغاية وخصبة، وسكانها خنوعون بشكل برىء وصبورون. . . لدرجة أن الإسپان كانوا يعتبرونهم حيوانات؛ بل يجب أن أقول أقل من الحيوانات، اعتبروهم نوعًا من الفضلات (١٩٧٤ : ٤١- ٤٢ فى دوسال ١٩٩٠ : ٤١).**

فى بادئ الأمر، وافق «لاس كاساس» على فكرة استرقاق العبيد السود وجلبهم إلى العالم الجديد لأنه كان يأمل فى أن يخفف وجود السود مأساة الهنود، إلا أنه رفض هذا الرأى فيما بعد (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٧). وأكد أنه كان من الأفضل بالنسبة للهنود أن يبقوا على عبادة الأوثان وهم أحياء من أن يكونوا مسيحيين أمواتًا، و أنه كان من الأحسن تنصيرهم بقدرة الإنجيل بدلاً من قوة الأسلحة(بريمان ١٩٨٧ : ١٠).

أما «فرانسيسكو دى ڤيتوريا» وهو لاهوتى وقانونى وداع بارز للإنسانية فى إسپانيا فى القرن السادس عشر، فقد رفض التبريرات التقليدية لتدمير الإسپان للهنود الحمر. ويُثنى عليه بصفته الرجل الأول على المستوى العالمى الذى شكك فى الإمپريالية الدينية للقرون الوسطى. ولكن بعض الحجج التى استعملها للدفاع عن «الحروب العادلة» شكلت تبريراً أيديولوچيّا لإخضاع الهنود. ومن هذا المنطلق، إذا قاوم الهنود الحمر حقوق الإسپان فى التجارة وما شابه ذلك، فيمكن أن نبرر الحرب(ڤيتوريا ١٥٣٨-١٥٣٩ : ٧٠٢). ومن ناحية أساسية، فنظراً للحالة المتخلفة التى يعيشها الهنود، فهم شبه مجانين، وغير قادرين على أن يحكموا أنفسهم، مما يبرر تدخل دولة أخرى أسمى منهم (تودوروف ١٩٨٤ : ١٤٩-١٥٠).

وبصفة عامة، يرى علماء اللاهوت المسيحى فى القرون الوسطى أن غياب الإيمان لدى الهنود يبرر للإسپان احتلالهم، والأعمال الوحشية والجرائم التى يقومون بها. يتأسس تبرير هذا العنف لاهوتيّا، على غزو الإسرائيليين لكنعان. ويتبنى أغلب علماء اللاهوت المسيحيين النظريات الإمپريالية الدينية ونظريات الحرب المقدسة، وهم بذلك يتجاهلون النزعات الأعلى فى كثير من تقاليد التراث ذى الطابع النبوئى للعبريين، ويتجاهلون الدعوة إلى عدم اللجوء إلى العنف فى العهد الجديد. إنهم «يرجعون» إلى تقاليد العهد القديم التى تجعل الحرب أداة عدالة إلهية، ويضرون بشكل كبير روح الإنجيل المنفصل عن مفهوم الأرض الذى يبرز بشكل كبير فى التوراة.

ونشأت معارضة الغزو الإسپانى من تجمعات عامة الناس ورجال الدين، الذين استعملوا لغة النبوءات فى حججهم، وكانوا يسخرون قائلين «إنهم يعيشون فى بابل وليس فى مملكة إسپانيا» وكأنهم ينشرون المسيحية فى نينوى، أو يعلنون حكم الله لشعوبهم. وأثناء الاحتفال بعيد الخمسين [عيد الحصاد] سنة ١٥١٤ فى كوبا، شهد

«لاس كاساس» أن الهبة المقدمة إلى الله بدون تطبيق العدالة هى هبة ملطخة بدماء الفقراء (سير ٣٤: ١٨-٢٢) . أما «فيليپ جوامان پوما دى أيبالا» (١٥٣٤-١٦٦١) نبى كويشا الذى أصبح مسيحيّا فقد قال: « حيثما يكون الفقراء ، يكون المسيح بنفسه حاضرًا» . ومن البديهى أن أنبياء العدالة لقوا مصير كل الأنبياء . فقد احتقرت الكنيسة والدولة «لاس كاساس» وأجبره المستعمرون فى سانت دومينيجو على أن يعتزل فى دير . وفى عام ١٥٤٨ أمر «تشارلز الخامس» بسحب حقه فى التعبير . أما «سيپولڤيدا» فقد نعته بأنه متهور ومُخز ومهرطق . وعند وفاته أمر «فيليپ الثانى» بمصادرة كتبه (انظر ساليناس ١٩٩٠ : ١٠٢-١٠٣)

يبدو النزاع الناشئ بين الأقطاب المختلفة للتنصير جليّا فى النقد القاسى ضد «لاس كاساس» الذى وجهه الأب «توريبيو دى موتولونيا» والذى أرسل يوم ٢ يناير ١٥٥٥ للإمبراطور إدانة ونقدًا لاذعًا بشكل مفصل ضد استنكار «لاس كاساس» للغزو . «اختلاط الفكر عنده كبير ، وتواضعه قليل ، ويظن أن الكل مخطئ وهو على صواب» . واندهش الأب «توريبيو» لصبر الإمبراطور الطويل على «لاس كاساس» حيث تحمل كل هذه المدة « رجلاً محرجًا ومزعجًا ومثيرًا للمشاكل والقلاقل ـ وهو يلبس لباس القس ومضطرب وقليل الثقافة ، ويلجأ للإهانة ويثير المتاعب . . الخ» . وأضاف «توريبيو» «إن لاس كاساس» كان يحركه حقده الكبير على الإسپان وحبه للهنود ، وهوما لم يبلوره على أرض الواقع . لم يحاول أبدًا أن يرى الجانب الإيجابى إنما كان يرى فقط الجانب السيئ والسلبى . ولم يندمج هنا معنا أبدًا فى إسپانيا الجديدة . جلالة الملك يجب أن تصدروا أمرًا ليعتزل فى أحد الأديرة حتى لا يسبب شرّا أكبر» (لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢٢٤ - ٢٩) . وطلب الأخ «توريبيو» المساعدة والدعم من الإمبراطور لتوسيع المملكة الخامسة ، وهى مملكة المسيح لتنصير الكفار . وكان الإمبراطور هو الزعيم والقائد . أما «لاس كاساس» فقد يعالجه أن يسمع يوميّا اعترافات ١٥أو ٢٠ من الهنود الحمر الذين يعانون ولمدة تتراوح ما بين ١٥ و ٢٠ عامًا (لوكهارت وأوت ١٩٧٦ : ٢٣٢) .

حتى يصير الأمر للأسوأ ، وبينما كان الأخ «توريبيو» يعد تقريره للإمبراطور ، حصل على أحد النصوص التى كتبها «لاس كاساس» مما أدى إلى زيادة غضبه وحميته

الدينية. وعلى عكس تأكيدات «لاس كاساس»، أكد على أن نقص عدد الشعوب الهندية لم يكن بسبب سوء المعاملة الإسپانية لهم، ولكن بسبب الأمراض والآفات، أو وفقًا للمعتقدات الكتابية، لوثنية الهنود:

لا أعرف ما إذا كانت ذنوب الوثنية المرتكبة على هذه الأرض هى السبب، ولكن أرى أن هذه الأجيال السبعة من عبدة الأوثان [الهنود الحمر] الذين كانوا يمتلكون أرض الوعد [أمريكا] تم إبادتهم من قبل يشوع [كولومبس] وبعد ذلك امتلكها بنو إسرائيل [الأوروپيون]. (لوكهارت وأوت ١٩٧٩: ٢٣٩).

ووفقًا للأخ «توريبيو»، كان الهنود ـ قبل تحولهم للمسيحية ـ يقومون بحروب عديدة ويهاجمون العديد من الأبرياء بهدف التضحية بهم وتقديم قلوبهم ودمهم كقرابين للشياطين (لوكهارت وأوت ١٩٧٦: ٢٤١). وما أدت إليه المسيحية من تحسين لأوضاع هذه الشعوب كان واضحًا.

وقد لقى أتباع «لاس كاساس» الصعوبات ذاتها. وأعلن الأسقف «خوان دل ڤالى دى پوپايان» (١٥٤٨-١٥٦٠) أنه سيستمر بإدانة أعمال الغزاة حتى وإن أرادوا رجمه بالحجارة. وحاول أن يعرض مشكلة الهنود وحالتهم فى مجلس الكنيسة ولكنه مات فى الطريق. وتم تعذيب العديد من الأساقفة، فقد تم ضرب الأسقف «أنتونيو دى ڤاليديڤيسو» أسقف نيكاراجوا حتى الموت (١٥٤٤- ١٥٥٠). وشهد رجال دين مسيحيون على أكبر عمليات قتل جماعى فى التاريخ الإنسانى، ونهاية حضارات السكان الأصليين. ولم يكن على المحك إلا بقاء السكان الأصليين على قيد الحياة. وكتب الأخ «پيدرو القرطبى» وهو مندوب الدومينيكان فى هيسپانيولا إلى «تشارلز الخامس» يوم ٢٨ مايو ١٥١٧:

لم أقرأ ولم أر أية أمة ـ حتى بين الكفار ـ قامت بإلحاق أضرار بالغة ووحشية بأعدائها مثلما فعل المسيحيون ضد رجال أبرياء كانوا أصدقاءهم وحلفاءهم على أرضهم... حتى فرعون والمصريون لم يتصرفوا بمثل هذه الوحشية مع شعب إسرائيل (سالیناس ١٩٩٠: ١٠٥-١٠٦).

وكتب الأخ لويز «لويز دى سوليس» أسقف كويتو عام ١٥٩٧ :

«وصل صراخ السكان الأصليين بسبب الشدائد الخطيرة والكثيرة التى لاقوها على أيدى الإسپان إلى الله» (ساليناس ١٩٩٠ : ١٠١-١٠٢).

وأثار وضع الهنود الحمر المشاعر ذاتها لدى أسقف سانتياجو شيلى، الفرانسيسكانى «دييجو دى هومانزورو» عام ١٦٦٦ حيث كتب للبابا :

إن بكاء الهنود عظيم ومتواصل لدرجة أنه يصل إلى عنان السماء. وإذا لم ننقذ هؤلاء البؤساء، أو إذا لم تستطع دموعنا أن تجفف دموعهم، سيتم المطالبة بذلك فى محكمة أكثر القضاة عدلاً . . . . إن الذين يقمعون الفقير ويحتقرونه لزيادة ثرواتهم، سيدينهم الرب (ساليناس ١٩٩٠ : ١٠٢).

وأثناء تحدثه أمام الملكة «ماريانا» ملكة النمسا عام ١٦٩٩، ندد الأب «دييجو دى هومانزورو» قائلاً :

خلال الأربعمائة عام وهى أعوام الأسر . . . ارتفع عدد العبرانيين. إلا أن الهنود لقوا مصرعهم على أرضهم منذ قدوم الإسپان ومات الملايين، وذلك بسبب التعذيب والاستبداد الذى عانوا منه تحت وطأة العمل الجبرى، وكان كل هذا أكثر قساوة مما كان مفروضًا على الإسرائيليين من قبل فراعنة مصر(ساليناس ١٩٩٠ : ١٠٧).

وكانت كل الأصوات التى عارضت التبرير اللاهوتى للاستعمار الأوروپى قد قارنت وضع الهنود الحمر بوضع الإسرائيليين فى مصر وبابل، بل وأيضًا بوضع المسيحيين الأوائل الذين كانوا تحت وطأة الإمبراطورية الرومانية. فليس هناك شىء فى الكتاب المقدس يمكن مقارنته بتدمير ثقافة الهنود وحياتهم، برغم أن هؤلاء المعارضين كانوا يقرءون الكتاب المقدس بأعين الإسرائيليين وليس بأعين الكنعانيين. هذا كما أنهم كانوا يرجعون إلى بعض فقرات الكتاب التى تبرر حججهم. وكان المعارضون يقارنون أنفسهم بيوحنا المعمدان ويصرخون فى البرية، وكانوا مستعدين للتضحية (مرقص ٦ : ١٧-٢٠). وهم سيُضطهدون كما اضطهد يسوع (يوحنا ١٥ : ٢٠). وبإحساسهم بمعاناة الضحايا كانوا يعتبرون أنفسهم الضحايا (مرقص ١٣ : ١٢ـ١٣).

ويرى هؤلاء المنشقون، أن الذين كانوا يزعمون بأنهم ينشرون حضارة الإنجيل لدى الهنود ما هم إلا شياطين. ويرى «فرانسيسكو نوناز دى پيندا باسكونان» (١٦٠٨-١٦٨٠) أن الأوروپيين كانوا يريدون أن يظهروا بمظهر كهنة المسيح بالكلمة التى ينشرونها، ولكن فى الواقع أثبتوا بأفعالهم أنهم كهنة الشياطين (ساليناس ١٩٩٠: ١٠٨). ويستحقون هذا الحكم الذى أطلقه عيسى كما دونه متى:

«الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا متهودًا، فإذا تهود جعلتموه أهلاً لجهنم ضعف ما أنتم عليه. الويل لكم أيها القادة العميان! تقولون: من أقسم بالهيكل، فقسمه غير ملزم، أما من أقسم بذهب الهيكل، فقسمه ملزم! أيها الجهال والعميان! أى الاثنين أعظم: الذهب أم الهيكل الذى يجعل الذهب مقدسًا؟ وتقولون: من أقسم بالمذبح، فقسمه غير ملزم، أما من أقسم بالقربان الذى على المذبح، فقسمه ملزم! أيها العميان! أي الاثنين أعظم: القربان أم المذبح الذى يجعل القربان مقدسًا؟ فإن من أقسم بالمذبح، فقد أقسم به وبكل ما عليه، ومن أقسم بالهيكل، فقد أقسم به وبالساكن فيه، ومن أقسم بالسماء، فقد أقسم بعرش الله وبالجالس عليه! الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تودون حتى عشور النعنع والشبث والكمون، وقد أهملتم أهم ما فى الشريعة: العدل والرحمة والأمانة. كان يجب أن تفعلوا هذه ولا تُغفلوا تلك! أيها القادة العميان! إنكم تُصَفُّون الماء من البعوضة، ولكنكم تبلعون الجمل!

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تنظفون الكأس والصَّحْفَة من الخارج، ولكنهما من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع! أيها الفريسى الأعمى، نظف أولاً داخل الكأس ليصير خارجها أيضًا نظيفًا!

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم كالقبور المطلية بالكلس: تبدو جميلة من الخارج، ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة! كذلك أنتم أيضًا، تبدون للناس أبرارًا، ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق!

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون! فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الأبرار، وتقولون: لو عشنا فى زمن آبائنا لما شاركناهم فى سفك دم الأنبياء.

فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلى الأنبياء! فأكملوا ما بدأه آباؤكم ليطفح الكيل! أيها الحيات، أولاد الأفاعى! كيف تفلتون من عقاب جهنم؟ لذلك: ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلمين، فبعضهم تقتلون وتصلبون، وبعضهم تجلدون فى مجامعكم، وتطاردونهم من مدينة إلى أخرى. وبهذا يقع عليكم كل دم زكى سفك على الأرض: من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحق أقول لكم: إن عقاب ذلك كله سينزل بهذا الجيل.

يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء والكافرة بالمرسلين إليها! كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، فلم يريدوا! هذا بيتكم يترك لكم خرابًا!» (متى ٢٣ : ١٥ - ٣٨).

الانعكاسات اللاهوتية المعاصرة والكتاب المقدس

شهدنا خلال سبعينيات القرن الماضى نموّا ملحوظًا بين الهنود للحركات العرقية التى تنادى بحقوقهم، تطالب بحق التعبير، وحق التعريف بإرثهم الثقافى. ولم تكن هذه الظاهرة تعنى أمريكا اللاتينية فقط، بل انتشرت تقريبًا لدى جميع الشعوب التى أعادت النظر فى وضعها كشعوب قد تسيد عليها الآخرون. ومنذ بضع عشرات من السنين، تحولت كنائس أمريكا اللاتينية من كنائس موالية بدون شروط للنظم القائمة إلى كنائس تنتقد الأنظمة نقدًا لاذعًا. وأدى هذا التطور فى الموقف إلى دخولهم فى نزاع مع العديد من الأنظمة فى المنطقة، لا سيما مع الأنظمة العسكرية. وبالفعل، تصرفت هذه الكنائس بشكل أفضل وأكثر إيجابية من كل المؤسسات الأخرى لتبين عدم المساواة فى توزيع الثروات فى مجتمعات أمريكا اللاتينية (ليثين١٩٧٩). وقد تعهد القساوسة ورجال الدين والعلمانيون بالدفاع معنويّا وبشكل قوى عن الشعوب الهندية ؛ تصدرت كنائس أمريكا اللاتينية قائمة الحركة العالمية لعملية لاهوت التحرير (انظر هنلى ١٩٩٥). وإلى حد ما يمكن ربط هذا الموقف الجديد بالشعور بالذنب الذى يستحوذ على أى فرد ذى قيم أخلاقية عندما يحلل الوضع الاجتماعى للمظلومين. ويعتبر «لاس كاساس» مثلاً صارخًا لهذا الفكر الناقد، وهو أيضًا بطل بالنسبة لأصحاب لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية، وذلك وفقًا لشهادة أهم معجبيه وتلاميذه القس

الهندى من پيرو «جوستاڤو جتييراز» الذى دائمًا ما يشيد به (١٩٩٣). كما ضم علماء الأجناس البشرية صوتهم لجماعات حماية المظلومين الذين لا صوت لهم (انظر أرزيپ ١٩٨٨ : ١٥٣).

وبالاعتراف بحقيقة الماضى الإمپريالى للمسيحية الأوروپية، يتعين على الذين بقوا على قيد الحياة من الهنود الحمر أن يتفادوا الوقوع فى هستيريا المراثى الأبدية، كما يتعين على ذرية الغزاة الأوروپيين أن لا يطوروا أيديولوچية عصبية بشأن اتهام أنفسهم. ولكن يجب سماع صراخ الفقراء الذين ماتوا من قبل، والذين يتمسكون بالحياة، بشكل واضح وقوى، ويجب إدماجهم فى الخطاب اللاهوتى (متز ١٩٩٠ : ١١٨).

وكتب «إجناشيو إلاكوريا» ـ أحد الچزويت الذين تم اغتيالهم فى السلڤادور ـ عن «الشعب المصلوب» : أمريكا اللاتينية (إلا كوريا : ١٩٨٩) والذى يجب إنزاله من على الصليب مثلما قال «چون سوبرينو» (١٩٩٠ : ١٢٥). ويشكل يوم ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ فى فكر لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية، بداية يوم جمعة مقدس طويل ودموى فى تاريخ أمريكا اللاتينية، وحتى اليوم، مع علامة صغيرة عن عيد الفصح (بوف وإليزوندو ١٩٩٠ : ٧). يمكن تلخيص الخطيئة الأصلية للاستغلال الاستعمارى كالتالى : «احتل الموت هذه القارة عام ١٤٩٢، موت البشر وموت البيئة وموت الروح وموت دين الهنود الحمر وثقافتهم» (ريشارد ١٩٩٠ (أ) : ٥٩).

ولا يمكن مقارنة هذه الكارثة الإنسانية بأى أمر آخر فى تاريخ الإنسانية، و يجب أن نشير إلى الإبادة الجماعية التى تم ممارستها علىً الشعوب الهندية فى جنوب «ريو جراند» (أمريكا اللاتينية و الكاريبى). وحتى إن لم يكن هناك اتفاق حول عدد سكان المنطقة [عند بداية الاستعمار] فإن هناك إجماعًا على أن الاستعمار الإسپانى أدى إلى نقص حاد وعام لشعوب المنطقة. وتثبت دراسات حالية أن عدد السكان كان يقدر بحوالى ١٠٠ مليون عام ١٤٩٢، لم يتبق منهم إلا ما يتراوح مابين ١٠ إلى ١٢ مليون نسمة[١] وذلك عام ١٥٧٠ أى فى أقل من قرن. وفى الوقت ذاته ارتفع عدد مهاجرى شبه الجزيرة الإسپانية والبرتغالية بشكل سريع وثابت.

(١) تراوحت تقديرات عدد السكان ما بين ٨ : ١٠٠ مليون. انظر دراسة بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ٩٨-١٢٤ حيث اختارا تقدير إجمالى عدد السكان للأمريكات ما بين ٣٥ إلى ٤٠ مليونًا (ص ٩٩).

وهناك دراسة حول السكان اهتمت بدراسة المكسيك الوسطى. ويقول «وودرو دبليو بورا» إنه كان هناك تراجع فى عدد السكان من ٢,٢٥ مليون نسمة عام ١٥١٨ إلى ٠,٧٥ مليون نسمة عام ١٦٢٢ (١٩٨٣ : ٢٦). وفى الواقع تتغير نسبة تراجع عدد الشعوب فى المناطق المختلفة للقارة، لكن وفقًا لجميع الدراسات كانت النسبة رهيبة فى كل القارة. وقد أصاب انتقال الطاعون والجدرى من أوروبا حوالى ثلث شعوب أمريكا الوسطى. وقد انهار شعب پيرو من ٩ ملايين عام ١٥٢٠ إلى ١,٣ مليون نسمة فقط عام ١٥٧٠ . وتم تسجيل نقص يتراوح من ٥٠ -٨٠٪ فى كولومبيا وڤينزويلا والإكوادور (بوركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ١٠٠).

وأدت الحروب الوحشية إلى تدمير مجتمعات هندية وإبادتها بأكملها، بالإضافة إلى الأمراض وسوء المعاملة والسخرة، وكذلك الإبادة للأسر بالجملة. أما النساء، فقد وقعن ضحايا الاغتصاب وتم معاملتهن على أنهن وسائل لإشباع احتياجات حيوانية، وهذا الأمر مستمرٌ إلى اليوم(إسكيڤل ١٩٩٠). إن أسباب الإبادة الشاملة متعددة:

صاحب الاقتلاع من الجذور والتدمير الصراع العسكرى، كما أن سوء معاملة الهنود بإجبارهم على العمل وتعرضهم للمجاعات وسوء التغذية كنتائج تغيير طريقة الحياة، والكوارث الطبيعية التى دمرت المحاصيل الزراعية، بل وأيضًا الصدمة النفسية التى أثرت على إرادة البقاء على قيد الحياة وعلى التكاثر لدى الهنود؛ كل هذا أدى إلى تراجع عدد السكان. هذا بالإضافة إلى ظروف الحياة التى ساعدت على انتشار الأوبئة التى أتى بها الأوروپيون والأفارقة. وأكثر من أى سبب آخر، أدت هذه الأوبئة الجديدة التى لم يكن لدى الهنود مناعة ضدها إلى ارتفاع نسبة الوفيات بشكل مذهل (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤ : ١٠١).

ومن أهم الأمراض التى أودت بحياة الهنود نذكر الجدرى و الحصبة. وفى القرن الثامن عشر تحسن الوضع بفضل اكتساب الهنود لمناعة أفضل ضد الأمراض التى أتى بها الأوروپيون عند غزوهم للقارة واستقرارهم بها.

هذا كما تم استرقاق ١٠ ملايين أفريقى وجلبهم إلى أمريكا اللاتينية والكاريبى، منهم ٣ ملايين إلى أمريكا الإسپانية خلال الفترة الاستعمارية، و ٤ ملايين إلى

البرازيل [لحساب البرتغاليين] حتى عام ١٨٥٠ و٣ ملايين إلى الكاريبى المستعمرة من قبل الإنجليز والفرنسيين. والبعض يقدر أن عدد المُسْتَرقين كان يقترب من ٢٠ مليون عبد (ريتشارد ٩٩٠ (أ): ٥٩-٦٠). ويمكن تلخيص النمو الديموجرافى فى أمريكا اللاتينية فى الفقرة التالية:

خسرت الشعوب الهندية فى العالم الإسپانى ٩٠٪ من تعدادها، وحدث تحسن طفيف فى نهاية القرن السادس عشر. لم يصل عدد السكان إلى العدد الذى كان موجوداً قبل قدوم الإسپان إلى العالم الجديد إلا فى عام ١٩٠٨. بينما ارتفع عدد الشعوب البيضاء بشكل سريع بفضل التكاثر وعلى الأقل حتى القرن السابع عشر بفضل الهجرة. وفى جزر الكاريبى والأراضى المنخفضة المجاورة، تم بشكل واسع استبدال العبيد السود بالعبيد المحليين بسبب الأمراض. (بركهولدر وچونسون ١٩٩٤: ١٠٧-١٠٨).

تشكل الفقرة التالية التى تم استخراجها من «لیناجاس» شهادة نموذجية لقبيلة المايا التى ترثى الدمار الذى أصابها من وجهة نظر الضحايا:

بسبب هذا الزمن المجنون، بسبب هؤلاء القساوسة المجانين، نحن نعيش فى تعاسة، وبسببهم جاءت المسيحية لأن المسيحيين العظام أتوا بالإله الحق؛ إلا أن هذا كان بداية أحزاننا.

- بداية إخضاعنا لنظام الضريبة

- بداية القتال باستعمال الأسلحة النارية

- بداية انتهاك القانون

- بداية انتزاع كل شىء

- بداية العبودية بسبب الديون

- بداية الغرق فى الديون

- بداية النزاعات التى لانهاية لها

ـ بداية العذاب .

ـ وهكذا كانت بداية عمل الإسپان والقساوسة، حيث كانت بداية تلاعب الزعماء والمدرسين والرجال الرسميين . . . .

ـ ولم يثر الشعب المسكين على ما أحس أنه العبودية .

ـ عدو المسيح على الأرض، ثمر الناس .

ـ وحوش الناس تمص دم الهنود .

ـ وسيأتى اليوم الذى ستصعد فيه الدموع إلى الله وستهبط عدالة الله وتضرب العالم (ريتشارد ٦٠ : ١٩٩٠) .

ولم يكن من الممكن تنفيذ هذه الإبادة الجماعية بدون لاهوت مناسب . وكل إبادة جماعية يبدو وراءها عنف لاهوتى (مايرز : ١٩٨٦) . لم يعتبر المستعمرون أن للسكان الأصليين وجوداً، وذلك شبيه بحالات الاستغلال الاستعمارى الأخرى . ولكن بالنسبة للسكان الأصليين، كان اكتشاف القارة والغزو شكلاً من أشكال الاحتلال، الذى أدى إلى نفيهم واستبعادهم بشتى الوسائل، الأمر الذى لا يزال مستمراً إلى اليوم .

الوضع الراهن

وبينما كان يتم التحضير للاحتفال بالذكرى الخمسمائة لاكتشاف أمريكا(١٤٩٢-١٩٩٢) تجمع زعماء الخمس عشرة أمة من الهنود لعقد مجلس كاثوليكى عالمى فى كويتو بالإكوادور وأعلنوا :

لم يكن هناك اكتشاف أو تنصير مثلما تم الإعلان عن ذلك، وإنما كان هناك غزو وكانت نتائجه :

(أ) الإبادة الجماعية التى تسببت فيها الحروب الاستعمارية، والعدوى بالأمراض التى أتى بها الأوروپيون، والموت بسبب الاستغلال الوحشى، والتفرقة بين الآباء والأطفال، مما أدى إلى انقراض ٧٥ مليونًا من إخواننا وأخواتنا .

(ب) اغتصاب أراضينا بالقوة.

(ج) تفكيك منظماتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية.

(د) إجبارنا على تبنى مبادئ أيديولوچية ودينية تتنافى مع معتقداتنا الدينية. (بيوزو ١٩٩٠ : ٧٩).

ويرى « بيوزو» أن السكان الأصليين كانوا ضحية عدة أشكال من الاحتقار والإهانة حيث يتحدث عن الإهانة السياسية و إهانة النساء واللغات المحلية والدين والإهانة المستمرة حتى اليوم، والتى تعانى منها حاليّا شعوب مثل شعب اليانومامى والذى يقول عنه:

هو شعب أصبح غريبًا فى بلده الأم، حيث تم الاستيلاء على أرضه وعلى تاريخه وعلى ذاكرته، واجه الموت بسبب الأمراض، والباقون على قيد الحياة يعاملون معاملة الحيوانات (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٢).

يصل حاليّا عدد السكان الأصليين فى أمريكا اللاتينية و الكاريبى إلى ما يقرب من ٧٠ مليون نسمة. ويشكلون فى جواتيمالا وبوليڤيا أغلبية السكان، بينما يشكلون فى الإكوادور و البيرو والمكسيك أغلبية السكان الريفيين والمهاجرين الذين يعيشون على حدود المدن الكبرى. أما فى البرازيل و التشيلى و الأرچنتين و السلڤادور وكوستاريكا فهم يمثلون أقلية مقهورة بقسوة (بيوزو١٩٩٠ : ٧٨). ويتم اضطهاد السكان الأصليين بطرق مختلفة فى جميع الدول تقريبًا، حيث يتم وضعهم (حبسهم) فى مخيمات، ويعانون من التمييز فى التعليم وفى الرعاية الصحية وفى السكن، كما يتم استغلالهم كلما أمكن ذلك. وتشهد الكنيسة أيضًا هذا التهميش لهؤلاء الهنود فى الممارسات الدينية. هذا ويطالب «ريتشارد» من الكنيسة أن تعترف بمسئوليتها فى الإبادة الجماعية التى مورست على السكان الأصليين، ويدعوها أن تكافح من أجل مساعدتهم على العيش بكرامة (١٩٩٠ (أ): ٦٤ - ٦٥).

يقول «سوبرينو»: «الوضع الاقتصادى لأمريكا اللاتينية رهيب. وفى نهاية هذا القرن، سيعيش ١٧٠ مليون شخص فى أمريكا اللاتينية فى فقر أليم، و١٧٠ مليونًا آخرين فى فقر مدقع على حدود الموت من الفقر» (سوبرينو ١٩٩٠ : ١٢٠). فأغلبية

شعوب أمريكا اللاتينية على حافة كارثة اقتصادية. ومن السهل أن نرجع الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة إلى الاحتلال الأوروبى الأول. إن الوضع الراهن متأثر للغاية بالزيادة السكانية الضخمة التى وصلت إلى ٣٩٠ مليون نسمة عام ١٩٨٠ مقابل ٦١ مليون فقط فى ١٩٠٠، والتى ابتعلت زيادة الإنتاج وأفرخت شرور البطالة، والأربعين مليون طفل الذين تم التخلى عنهم. ولكن يمكن أن نتتبع فى التاريخ الاستعمارى لهذه المنطقة، جذور عدم المساواة والاستغلال والظلم الفريدة، والتى تسم اليوم أمريكا اللاتينية.

ولا يستطيع أحد أن يتجاهل تأثير الحكومات العسكرية التسلطية فى العديد من هذه الدول التى اعتمدت إلى وقت قريب على دعم رجال الدين. ولم يكن أقل سوءًا التوقع اليوتوپى فى ستينيات القرن الماضى، بأن كل ما تحتاجه الشعوب هو المزيج ذو النسب الصحيحة بين الماركسية الروحية، والتحليلات المعتمدة [على قوى خارجية]، والنظرة الرؤيوية [النابعة من الكتاب المقدس] والتى تعبر عن طموحات الألفية. ويستند علماء لاهوت التحرير على الفرضية القائلة بأن هناك إمكانية السمو بالتاريخ وذلك بخلق نوع جديد من الإنسان، هو نتاج ضمير جديد يرقى إلى قوة أعلى. والضمير الأعلى قادر على تخطى نقائص الحياة المادية التى هى نتاج الضمير الزائف للأجيال السابقة (انظر پايك ١٩٩٣ : ٤٦٣).

ويصر «سوبرينو» قائلاً: إن الوعى بالواقع الحالى يسمح للمرء بتقدير حجم الخطيئة الأولى فى غزو القرن الخامس عشر. يمكن وصف ما جرى فى التاريخ وما أصاب الشعوب بشكل كامل باستعارة: «الشعوب المصلوبة». أناشيد الخادم فى سفر إشعياء، مع النظر للشعب المصلوب، ويبقى أن نرى هل سيكون لأسطورة معاناة الخادم [العبد] تأثير أكبر فى تنظيم العالم من تقديس ثقافة النظام الجديد للأعمال [businesses]؟.

دور الكتاب المقدس

لقد رأينا أن الأمريندين [الهنود الأمريكيين] كانوا ضحايا تجاوزات شديدة للإمپريالية الاستعمارية التى مارسها المستوطنون الأوروپيون، الذين كانوا يستمدون سلطتهم من مزيج من السلطة الدنيوية ومن تشريع دينى يرجع إلى مسيحية القرون

الوسطى. وحتمًا تفرض الحجج الدينية نفسها فى مجتمع يدعى الحكم باسم الإله (مجتمع ثيوقراطى). ويرى بعض علماء اللاهوت (على سبيل المثال سيپولڤيدا) أن غياب الإيمان لدى الهنود والجرائم التى كانوا يرتكبونها ضد الطبيعة، تبرر احتلال أراضيهم، وأن غزو إسرائيل لأرض كنعان يُبرر استعمال الأسلحة ضد الهنود (انظر سفر التثنية ٩ : ٥ و١٨ : ٩-١٤ وسفر اللاويين ١٨ : ٢٤-٢٥).

ولقد رأينا أنه فى مقابل دعم الكتاب المقدس وعلماء اللاهوت المسيحيين للاحتلال الأوروپى، كانت هناك أصوات وآراء معارضة لحججهم وتأويلاتهم. والأمر المهم عند دراستنا للتأملات اللاهوتية حول عمليات استغلال أمريكا اللاتينية، هو معرفة هل يقف الرب إلى جانب الهنود المساكين الذين تم استغلالهم، والذين يصفهم «جوامان پوما» وهو هندى من البيرو بمساكين المسيح (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٥)، أم مع المستغلين والمحتلين المدمرين؟! ووفقًا لـ «پوما»، ليس هناك شك بأن جميع الإسپان سيذهبون إلى الجحيم بسبب سوء معاملتهم للهنود وتعذيبهم لهم (بيوزو ١٩٩٠ : ٨٧). وعندما زار البابا «يوحنا بولس الثانى» البيرو مؤخرًا، تسلم رسالة مفتوحة من الحركات الوطنية المختلفة جاء فيها:

البابا يوحنا الثانى: نحن الأنديين والهنود الأمريكيين، عقدنا العزم على أن نعيد إليكم كتابكم المقدس؛ لأنه طوال خمسة قرون لم يقدم لنا الحب والسلام والعدل، نرجو أن تأخذوا كتابكم المقدس وأن تعيدوه إلى مضطهدينا لأنهم بحاجة إلى تعاليمه الأخلاقية أكثر مما نحتاج إليها نحن، فمنذ أن جاء «كريستوفر كولومبس» فرض ثقافة أوروپا وديانتها ولغتها بالقوة، وكان الكتاب المقدس السلاح العقائدى لهذه الهجمة الاستعمارية، حيث جاء كجزء من التغيير الذى فرضه الاستعمار. وأصبح السيف الإسپانى الذى هاجم أجساد الهنود وقتلها فى أطراف النهار وآناء الليل كالصليب الذى هاجم روح الهنود. (ريتشارد ١٩٩٠ (أ): ٦٤-٦٥).

ويعتقد «ريتشارد» أن المشكلة لا تكمن فى الكتاب المقدس، وإنما تكمن فى الطريقة التى تم بها تفسيره (١٩٩٠ (أ): ٦٦). ويتمثل دور الشعوب والسكان الأصليين فى إعادة تأويل الكتاب المقدس بشكل يحرر التأويل القديم وبشكل يتناسب مع النظرة

المحلية. إن مثل هذا التأويل الذى يعتمد على وعى البرازيلى «پاولو فرير» يجب أن يعترف بالأهمية الرئيسية للتجربة الأولى [تجربة الهنود]. إن تاريخ السكان الأصليين وتكوينهم وحياتهم وثقافتهم هو أول كتاب من كتب الله، أما الكتاب المقدس فهو الكتاب الثانى لله الذى أعطاه للمؤمنين حتى يستطيعوا قراءة الكتاب الأول. هذا كما يتعين على السكان الأصليين أن يقوموا بأنفسهم بتأويل الكتاب المقدس. وتم تطبيق مثل هذا البرنامج بالفعل فى المجتمعات المسيحية. وتم وصف هذه الطريقة فى دراسة عميقة وشاملة قامت بها إحدى المجلات تحت عنوان: «قراءة شعبية للكتاب المقدس فى أمريكا اللاتينية: تأويل التحرير». وتحمل المجلة اسم مجلة «تأويل الكتاب المقدس» (سان خوسيه: كوستاريكا، ١٩٩٨، رقم ١).

هذا كما تناول «ليف ڤاج» (١٩٩١) الحدود المشتركة بين الكتاب المقدس و الكفاح الاجتماعى فى أمريكا اللاتينية، على خلفية مضادة لاستخدامه كأداة للاضطهاد فى المنطقة. ويعمل (مركز دراسة الكتاب) فى البرازيل على ثلاثة التزامات حاسمة: الانطلاق من الواقع مثلما هو متصور، قراءة الكتاب فى جماعات، الالتزام بالنضال من أجل التحول الاجتماعى والسياسى، وذلك بقراءة الكتاب المقدس. وهكذا يصبح المتخصص فى الكتاب خادمًا مدعوّا للعمل وفقًا لخيار الجماعة. ويجب على هذا المتخصص أن يدرس الكتاب ويؤوله من وجهة نظر الفقير والمضطهد. وعلى ظاهر التناقض، استعمل المدافعون عن حقوق الأمريندين التقاليد النبوئية للكتاب وتعاليم عيسى كعوامل للتحرير، برغم استخدام التقاليد القتالية للعهد القديم كأداة اضطهاد وقمع من قبل الغزاة. ويسعى التأمل اللاهوتى الحالى إلى الرجوع إلى مواضيع الكتاب التى تشير إلى التحرير. ويدعو إلى إعادة قراءة الكتاب لكن من وجهة نظر الفقير المضطهد وتحريره، وبالتأكيد على تطبيق الممارسة أكثر من التركيز على قراءة نصية غير عابئة بالواقع. فى هذا التناول المبنى على العمل، من المهم جدّا تأويل الحياة بالتوافق مع الكتاب المقدس بدلاً من الوقوف عند تأويل نص الكتاب (بوف وبوف ١٩٨٧: ٣٣-٣٤). إلا أن الكتاب غامض عندما يتعلق الأمر بالتحرير. وسنرى عند الإشارة إلى الخروج من مصر من جهة، والدخول فى أرض كنعان من جهة أخرى، أن المصطلح الكتابى يبرر أعمال الغزاة، أكثر مما يخدم تحرير المضطهدين.

ولكن لنغير المكان والزمان لنفحص كيف شكل الكتاب المقدس واللاهوت المسيحى دعامة لتطور القومية الأفريقانية في جنوب أفريقيا. وسنلاحظ تطوراً فى استغلال النموذج الكتابى. وبينما استعمل الكتاب المقدس كأداة للتبرير، وعلى العكس أيضًا لإدانة الاستعمار الإسپانى والبرتغالى، حين كان المشروع الاستعمارى قيد التطور، فسوف نرى فى حالة الاستعمار والقومية الأفريقانية كيف تم استغلال نموذج (الخروج ـ الاستيطان) ليس فقط لتبرير الاستعمار، ولكن كداعم أبدى لـ «التنمية المنفصلة». وليس أقل ظهوراً فى التناقض عن حالة أمريكا اللاتينية، استعانت أيديولوچية رفض القمع بالكتاب المقدس بحثًا عن أدلة تدعمها.

* * *